الحلقة السادسة والعشرون

(1) (صيدا.. منزل الشيخ يوسف الأسير.. حنيفة تفوّر عصير البرتقال المكثف مع القطر، وقد صفت قناني الشراب على رخام المطبخ.. فاطمة تعد مائدة الفطور)

حنيفة: علي أن أكثر من تحضير ماء الزهر المقطر، وشراب البرتقال المكثف، أزود بها الشيخ لزواره وضيوف محمود الذين تكاثروا هذه الأيام..

فاطمة: (تشعر بدوار) لاأدري ما بي يا خالة.. ان رائحة وابورالغاز تشعرني بالغثيان (تهرع الى الحمام لتفرغ ما شربته من عصير البرتقال في الصباح.. تطفئ حنيفة الوابور تحت القدر الكبير الغالي وتتبع فاطمة الى الحمام)

حنيفة: لا تخافي ياابنتي.. هذه أعراض الحمل.. منذ متى انقطعت عنك العادة الشهرية؟

فاطمة: لم تأتني هذا الشهر..

حنيفة: هذا خبر سيسعد الشيخ كثيرا.. سأزفه اليه حين يأتي.. اذهبي وارتاحي في غرفة نومك يا ابنتي.. (طرق على الباب) هذا هو الشيخ.. لعله نسي مفتاحه في بيروت (تفتح الباب) آه سميرة! أهلا بك، كيف حالك وحال أمك؟ (تدخلان معا غرفة الإستقبال)

سميرة: جاءني خطيب ياعمتي.

حنيفة: مبروك ياابنتي!

سميرة: ولكنني ألزم نفسي بمحمود.. أما كنت وإياه مخطوبين منذ الصغر؟

حنيفة: ياابنة أخي ليس لي دالة على محمود ولا غيره من أبنائي.. شباب هذا الجيل لا يلتزمون بوعد قطعه الآباء فيما بينهم دون أن يكون لهم رأي فيه.. وخصوصا هؤلاء الذين درسوا في الخارج.. ان كان هذا الخطيب الذي جاء يطلب يدك ويعرفه أخي جدير بك فلا تتأخري، ولا تنتظري.. فالفتاة لها موسم ولا يجدر بها أن تتأخر عنه في انتظار أحد..

سميرة: ان والدي يعرفه فهو تاجرأقمشة في بيروت.. يقول عنه بأنه جيد.. ولكن بالنسبة لي هو غريب وقلبي قد تعلق منذ الصغر بمحمود!..

حنيفة: قبل أن يسافر الى بيروت عرض عليه والده أسماء كثيرات من بنات العائلة، ولكنه رفض وقال بأنه يريد أن يبني نفسه أولا، ويكون له

مكتب قبل أن يفكر في الزواج.. فلا تعوّلي كثيرا على محمود.. تخطفهم السياسة فلا يفكرون بالزواج.
سميرة: لقد قصّرت في حقي يا عمتي.. ألم تذكّري محمود بما كان بيني وبينه من ود، ولهفتي عليه حين سافر للدراسة، وجزعي الكبير عليه حين سيق الى الحرب؟ وفرحي الغامر حين عاد سالما؟ كنت مستعدة أن أتزوج محمود حتى لو كان فقد في هذه الحرب اللعينة عضوا من أعضائه!
حنيفة: الزمن خطفه منا جميعا يا سميرة.. لم يكن قريبا مني بشكل كاف كي أقنعه بالزواج من أحد.. حتى أنا أمه أشعر بالغربة معه (سميرة يبدو عليها خيبة الأمل والإنزعاج.. تنهض محاولة الخروج) ابق معنا على الفطور فلا يلبث أن يصل الشيخ..
سميرة: أمي تنتظرني على الفطور، وربما سافرنا مع والدي للتعرف الى أهل العريس.. (تخرج)
حنيفة: لا حول ولا قوة الا ّبالله! كم من المشاكل جاءتني منذ عاد محمود! (تسمع قلقلة المفتاح في الباب فتنهض لاستقبال الشيخ)
الشيخ: رأيت سميرة وهي خارجة من باب الحديقة فما كانت حاجتها؟
حنيفة: جاءت تذكرني بوعدنا لها في الماضي أن تكون لمحمود.
الشيخ: مسكينة سميرة كم هي غافلة عما آل اليه أمر محمود.. كأنها تحسبه في جيبنا، فكيف يكون شأنها لو علمت بمن سيتزوج اليوم؟
حنيفة: ممن!
الأسير: لن تصدقي من اختارته زوجا لها! انها شهربان! (حنيفة تريد أن تزغرد، فيصمتها الشيخ) حضري نفسك أنت وفاطمة فالعرس بعد أسبوعين (يخرج كيسه ويعطي حنيفة عددا من القطع الذهبية) اشتري لنفسك ولفاطمة قماشا من البروكار الدمشقي تخيطينه أنت وفاطمة عند أفضل خياطة في صيدا!
حنيفة: نسيت أن أبشرك بأن فاطمة حامل، وقد بدت عليها أعراض الحمل صباح اليوم بالدوار والغثيان والإقياء!
الأسير: (مبتهجا) بشرك الله بالخير.. أين هي؟
حنيفة: ترتاح في غرفتها..
(2) (بيروت.. السفارة الألمانية.. هيلدا ووالدها)
هيلدا: (تكفكف دمعها) لن تصدق يا أبي الجماهير التي خرجت في جنازتها تودعها.. حمل نعشها شباب دار الأوبرا في ويمر، وتقدمتها الفرقة الموسيقية فيها تعزف اللحن الجنائزي في وداعها، وخرج وراء

نعشها الوزراء والأدباء والفنانون والموسيقيون الى مقرها الأخير، واصطف الناس على جانبي الطريق حاملين الزهر الذي ألقوه على الأرض أمامهم عند مرور الموكب الذي يحمل جثمانها، وتعالى البكاء والنحيب وهم يودعونها الى مقرها الأخير.. وفي ساحة دار الأوبرا صنع لها تمثال على قاعدة حفر عليها اسمها "هنا ترقد مغنية الأوبرا الشهيرة **جرترود روبنشتاين"**

(3) (بيروت.. قصرعلي باشا.. الإستعداد لزواج شهربان ومحمود قائم على قدم وساق.. الموائد مصفوفة في حديقة القصر والزينات تمتد بين الشجر، والقناديل معلقة عليها، واللكسات الألمانية الصنع تسطع في مدخل القصر وفي الردهة والحجرات.. عربتا القصر تنقلان الفواكه على أنواعها والسكاكر والعلب المصدفة لتوزيعها على المدعوين.. وسدور الحلوى التركية واللبنانية يحملها النادلون من مخبز السفراء الى مطبخ القصر.. وفي المطبخ، في الطابق الأرضي، يعد الطباخ التركي والطباخ اللبناني منذ الصباح مختلف أنواع الأطعمة التركية واللبنانية، تساعدهما جواري شهربان الثلاثة اللبنانية والسودانية والتركية مع زوجة البستاني والعربجي اللتين تسكنان مع زوجيهما في القصر.. في داخل القصر أعطي جناح الزوار لنساء صيدا المدعوات الى العرس، لتغيير ثيابهن وترتيب شعورهن وتجميل أنفسهن بينما احتل رجالهن الفنادق في بيروت.. وفي الردهة الرحبة نصب ايوان للعروسين تحيط به نصب الأزهار.. شهربان في الطابق الثاني من القصر تقيس ثوب عرسها.. والخياطة تقوم باللمسات الأخيرة عليه قبل انصرافها.. شهربان تنظر الى نفسها في المرآة معجبة بثوبها من البروكار الحريري الدمشقي، وبموديله الذي رسمته بنفسها للخياطة على النسق الأوروبي.. وصيفتها تنظر بأعجاب اليها)

الوصيفة: يا الله كم هو جميل! لن تجدي أحدا يخطر بباله أن يفصل ثوبا ويزينه مثله..

الخياطة: لقد بقي بناتي أسبوعا كاملا في تطريزه!

شهربان: أريد أن يكون ثوبي متميزا في هذه المناسبة السعيدة، في لونه وتفصيله ونزيينه.. فهل التزمت بما اشترطت عليك؟

الخياطة: (بارتباك) فقط صنعت مثيلا له لخطيبة التاجر الذي اشتريت منه القماش.. ان عرسها قريب.. جاءتني بالقماش نفسه، ورجتني أن أخيطه وأزينه لها على غرار تفصيلة ثوبك وزينته..
شهربان: (بغيظ) انني أتشاءم من هذا الأمر، فقد تكون احدى المدعوات الى عرسي! انك لم تلتزمي بما اشترطته عليك لا أنت ولا التاجر!
الخياطة: التاجر الذي أتيتك بنماذج الألوان التي لديه التزم بتعهده أن لا يبيع من القماش نفسه الاّ بعد انقضاء العرس بأسبوع.. فكيف تكون خطيبته بين المدعوات الى العرس وأنت لم تدعي من النساء الاّ أقارب خطيبك الذين جاؤوا من بلد بعيد، مع أزواجهن؟
شهربان: لمزيد من الإطمئنان، أدخلي الى الجناح الذي تنزل فيه المدعوات من النساء، وتأكدي أن من نقلت لون وتفصيلة ثوبي ليست بينهن (الى وصيفتها) إذهبي معها ودليها على الجناح حيث ينزلن..(الى نفسها) ان كانت بين المدعوات فهي قريبة لمحمود لتدبر لي مقلبا في ليلة عرسي! (تعود الوصيفة لتخبرها بأنها وجدتها بينهن وسلمت عليها قبل أن تنطلق الى بيتها)
شهربان: أين وضعت حقائب المدعوات؟
الوصيفة: في الغرفة الصغيرة المجاورة حيث أودعت النسوة أزرهن على المشاجب..
شهربان: تفتحين الحقائب واحدة واحدة، فان وجدت في إحداها مثل ثوبي تأتين به في الحال الي! (تخرج الوصيفة) سأجعلها تدفع ثمن مكرها بي! أنا شهربان لن أجعل أحدا يسخر بي في ليلة عرسي! (تدخل الوصيفة متأبطة لفة الثوب.. تفرده شهربان وتعمل فيه المقص في عشرات المواضع.. تكومه مرة أخرى وتعطيه للوصيفة لتعيده الى الحقيبة) ليقدم لها خطيبها قماشا آخر تخيطه ليوم عرسها!
يستمر العرس كما شاءت له شهربان بالزغاريد والرقص والفرقة الموسيقية التي ترافق غناء مطرب تونسي رافق عائلة محمد الذي جاء ليحضر عرس أخيه، وعرّج على مصر ليصطحب أخاه حسن، وحمل معه من الهدايا الثمينة للعروس ولأفراد عائلته ما جعل أسرة الأسير تلتقي جميعها في بيته في أسعد المناسبات، وتتهيأ نساءا ورجالا وأطفالا لحضور عرس محمود وشهربان..
صعدت زوجتا الأسير وزوجة مصطفى وزوجة محمد الى عربة، أما الأخرى فقد صعد اليها الأسير وابناؤه محمد وحسن ومصطفى، وعلى أحضانهم بنت محمد وابنتا مصطفى فعلق الأسير:

الأسير: أرى أن أم محمود لم تنجب لي الاّ الأولاد أما أبناؤه فلم ينجبوا الا بناتا!
محمد: ألا تحب البنات؟
الأسير: على العكس، انني أتمنى أن تغلط الطبيعة وتنجب لي من زوجتي الجديدة البنات..
اجتمعت أسرة الأسير معا رجالا ونساء في الردهة بعد أن انصرف المدعوون والمدعوات وكان علي بثيابه البحرية من المخمل اللازوردي يركض فرحا في الردهة، وتلحق به صغيرات العائلة، بثيابهن من الأورجانزة المكشكشة المختلفة الألوان.. وتجلس شهربان على عرشها مطوقة بعقد اللؤلؤ الرباعي الذي أهدته أمها لها في عرسها الأول.. وقربها علبة المجوهرات التي تلقتها من أهل محمود.. يداها بين يديه، يوشوشها أعذب الألحان..
لم تخرج من القصر باكية تحمل حقيبتها وفيها ثوبها الممزق الاّ سميرة التي أخذت أمها تعنفها على فعلتها السوداء، وانتبهت شهربان الى حنيفة التي أخذت تبرر فعلة ابنة أخيها الى الوعد القديم الذي التزمت به العائلة في تزويجها لمحمود، وحبها له منذ الصغر وانتظارها له أثناء دراسته، والحزن الذي أمرضها حين سيق الى الحرب، وفرحها حين عاد منها سالما، وحدثت شهربان بما جرى بينهما من حديث قبل أن تعرف أن محمود اختار سواها..
شهربان: (متأثرة بحديث حنيفة) والله يا خالة لو كنت أعلم أنها ابنة أخيك لما عاقبتها، وكسرت بخاطرها، وكنت أفعل غير ذلك تماما كأن أخبئ ثوبها في خزانتي، وأرجعه اليها في عرسها.. أما وقد جرى ما جرى فانني أهديها ثوبي في عرسها تعويضا لها عن الثوب الذي فقدته..

* * *